

الجزائر من خلال كتاب محمد بيرم الخامس التونسي
"صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"
Algeria through the Tunisian's book of Mohamed Bayrum V.
"Safouahalaat'barbimstouda' ala'amsarwala'ktar "

اسم ولقب المؤلف المرسل: مراد تجنانت- Mourad Tadjenant صص 380-404

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- جامعة لونيس علي- البليدة 2- الجزائر

البريد الإلكتروني: m.tadjenant@univ-blida2.dz

اسم ولقب المؤلف الثاني: عبد الباسط قلفاط- Abdelbassat Kalafat

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- جامعة الجيلالي بونعامة- خميس مليانة- الجزائر

البريد الإلكتروني: a.kalafat@univ-dbk.dz

تاريخ الإرسال: 2021/03/01 تاريخ المراجعة: 2021/04/04 تاريخ القبول: 2021/05/18

الملخص: يشتكي الباحثون في تاريخ الجزائر المعاصر من قلة المصادر والوثائق المحلية، في حين توجد الكثير منها مغمورة، ويأتي على رأسها كتب الرحلة والجغرافيا؛ تسعى هذه الورقة البحثية لاستقصاء أوضاع الجزائر من خلال مصدر تونسي وهو "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" للشيخ محمد بيرم الخامس؛ وتبرز أهمية هذا المصدر عندما نعرف أن صاحبه كثرت أسفاره وتعددت معارفه الدينية والتاريخية والجغرافية؛ لذلك تحاول دراستنا هذه الإجابة على إشكالية أساسية تتمثل في البحث عن قيمة وحجم المادة العلمية التي يوفرها هذا المصدر حول أوضاع الجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة.

كما تعرفنا هذه الورقة البحثية في البداية على شخصية المؤلف والعوامل التي أثرت في تكوينه، بداية من انتمائه إلى أسرة علمية وسياسية، ثم تنوع مدارسه وشيوخه، إضافة إلى احتكاكه برجال الإصلاح والسياسة في الشرق والغرب؛ ولعل أبرز عوامل تكوين شخصيته رحلاته التي ساهمت في توسيع أفقه؛ كما لا ننسى أثر أحداث عصره عليه خاصة منها ضعف وانحطاط العالم الإسلامي، وتنامي التدخل الأوروبي في شؤونه.

تعرض في كتابه "صفوة الاعتبار" لمحطات هامة من تاريخ الجزائر، ومنها طريقة انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، وأسباب نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر سنة

1830، وأهم المقاومات الشعبية، إضافة إلى أهم محطات السياسة الفرنسية في البلاد، وقدم صورة واضحة عن حالة القضاء الإسلامي وحال القضاة بعد نصف قرن من تدخلات الإدارة الاستعمارية؛ وفي الحياة الثقافية والتعليمية ناقش بعض المسائل فقهية وعرفنا بعدد من العلماء في مدينة الجزائر وعناية، وكشف لنا عن حالة التعليم السائد في الثلث الأخير من القرن 19.

الكلمات المفتاحية: الجزائر؛ تونس؛ باريس؛ محمد بيرم الخامس؛ صفوة الاعتبار؛ المصادر الأوروبية؛ الدولة العثمانية؛ الرحلة؛ السياسة الاستعمارية؛ الحياة التعليمية.

Abstract: Researchers in the Algerian modern history are complaining about the lack of sources and local documentation on books on local geography and trips in spite the availability of some of them. This research aims to provide investigate the conditions in Algeriathrough a Tunisian source, "Sfouahalaat'barbimstouda'ala'msarwala'ktar" by Sheikh Mohamed Bayram V.

The importance of this source becomes clear when we know that his owner was a tripper, and has a multi religious, historical and geographical knowledge. The purpose of this search is to answer the Problematic which is the search of scientific material provided by this source about the situation of Algeria during the modern age.

This search lets us know the personality of the author and the factors that influence his training, starting from

being a member of a political and scientific family, then to his various schools and teachers, and finally his frequent contact with both oriental and occidental political men. However, one of the most supreme factors that contribute to build his personality was his trips that helped him to enlarge his background. Referring also to the influence of events during this era especially the weakness of Islamic world and the intervention of European in his business.

In his "book Sfouah alaa'tbar", he presented important milestones in the history of Algeria including the way Algeria joined the ottoman empire, the reasons for the success of French complain and the most important popular resistance, in addition to the most important of French political policy in the country. He represented also a clear picture of Islamic judiciary state and the status of judges after half a century of intervention by the colonial administration.

From the side of cultural and educational life, he discussed some jurisprudential issues and he introduced a number of scholars in Algiers and Annaba where he revealed the level and status of education prevailing in the last third of the nineteenth century.

Keywords: Algeria - Tunisia - Paris - Mohamed Bayram V –Safouah alaa'tbar - the judiciary - European sources- the Ottoman Empire - the journey - the colonial policy - the Educational life.

مقدمة: تعتبر كتب الرحلة من أهم المصادر التاريخية خاصة للفترة الحديثة والمعاصرة حيث طغت الأرشيفات والمصادر الغربية على المصادر المحلية، فأثرت على نتائج البحوث والدراسات العلمية لعقود في بلادنا، وتزداد أهمية الرحلات عندما تصدر من علماء جابوا الأمصار والأقطار، وتعددت معارفهم الدينية والتاريخية والجغرافية، واحتكوا بنخب علمية وسياسية وعسكرية.

لعل من أبرز هؤلاء محمد بيرم الخامس التونسي الذي زار الجزائر وبعض مدنها بعد نصف قرن من الاحتلال، والتقى بنخبها العلمية وتعرف على عدد من السياسيين والعسكريين الفرنسيين؛ كما جال في عدد من البلدان الأوروبية والعربية، فكان شاهدا على محاولات الإصلاح وحركة النهضة في البلاد الإسلامية، فإلى أي مدى يمكن للباحثين في تاريخ الجزائر الاستفادة من كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"؟ وما هي قيمة المادة التاريخية التي تضمنها؟

1- شخصية محمد بيرم الخامس (1256-1307هـ/1840 - 1889م).

1-1-عوامل النشأة والتكوين: هو محمد بن مصطفى بن محمد الثالث بن محمد الثاني بن محمد الأول، جدّه الأعلى حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرم من أصول تركية⁽¹⁾، كان ضابطا في الجيش العثماني الذي هزم الإسبان وأخرجهم من البلاد التونسية عام 1574م؛ تزوّج حسين بن أحمد ابنة عالم ووزير أندلسي يعرف بابن الأبار، فأنجبت له محمد بيرم الأول، وصار البيارمة أصحاب جاه وثروة ومن الأسر المتصدرة للعلم والفتوى على المذهب الحنفي، وهو مذهب البايات في تونس⁽²⁾؛ وانخرطوا في الوظائف القضائية والإدارية والعسكرية⁽³⁾، يتقدمهم محمد بيرم الأول الذي كان أول باش مفتي حنفي في عام 1757 م، وبقي هذا المنصب حكرا على أبناء الأسرة إلى وفاة بيرم الرابع سنة 1861م⁽⁴⁾.

ولد محمد بيرم الخامس شهر محرم من سنة 1256هـ/مارس 1840م، كان أبوه مصطفى بن محمد الثالث مالك عقاري كبير وموظف حكومي، وأمّه بنت محمود بن محمد خوجة (وزير الحربية)، وزوجته بنت عمّه محمد بيرم الرابع؛ أنجب ثلاثة أبناء هم مصطفى الأزهر قاض ومحمود توفي صغيرا ومحمد الأزهر مات في مصر في نهاية القرن 19م⁽⁵⁾ وتوفي

محمد بيرم الخامس بمصر في مدينة حلوان في 25 ربيع الثاني 1307هـ/ 18 ديسمبر 1889م ودفن بالقاهرة قرب ضريح الإمام الشافعي⁽⁶⁾.

درس محمد بيرم الخامس على شيوخ الزيتونة ومنهم عمه بيرم الرابع، وعلى رجال الإصلاح وفي مقدمتهم الشيخ محمود بن محمد قبادو (1815-1871م)⁽⁷⁾، فأخذ عنهم مختلف العلوم النقلية والعقلية، وأضاف لتكوينه الزيتوني ثقافة علمية واسعة في مختلف روافد المعرفة زيادة على اللغات منها الفرنسية والتركية⁽⁸⁾.

2-1- الوظائف التعليمية والإدارية: بعد أن أكمل دراسته تولى محمد بيرم الخامس خطة مدرس حنفي من الطبقة الثانية بجامع الزيتونة سنة 1857م، ثم تقدّم إلى خطة مدرس من الطبقة الأولى عاما بعدها، كما تولى مشيخة المدرسة العنقية إلى غاية 1878م⁽⁹⁾؛ ولما تولى صديقه خير الدين باشا رئاسة الوزارة سنة 1874م استعان به على إدارة جمعية الأوقاف⁽¹⁰⁾، ثم عينه مديرا لجريدة الرائد التونسي، وهي صحيفة رسمية بدأ نشرها في 2 جولية 1860م⁽¹¹⁾؛ وبقي محمد بيرم مزاولا لمهامه الإدارية والدبلوماسية في حكومة الباي محمد الصادق حتى جولية عام 1880م رغم استقراره خارج البلاد⁽¹²⁾؛ وفي آخر أيامه بالقاهرة تولى القضاء بالمحكمة الابتدائية⁽¹³⁾، يضاف إلى هذه الوظائف مختلف المهام الدبلوماسية التي كلفته بها الحكومات في تونس والأستانة والقاهرة وأوروبا.

3-1- رحلاته وأسفاره: كانت لمحمد بيرم الخامس عدة رحلات إلى البلدان الأوروبية والإسلامية، أولى هذه الرحلات كانت إلى أوروبا للعلاج من نوفمبر 1875 إلى أواخر جانفي 1876م، زار خلالها إيطاليا وفرنسا ثم كانت له سفيرة ثانية لنفس الغرض إلى باريس في صيف 1878م، استقبله في هذه الزيارة الرئيس الفرنسي ماكماهون (Mac Mahon) في باريس، ومنها عاد إلى تونس معرجا على الجزائر⁽¹⁴⁾. أما رحلته الثالثة فكانت بين أواخر جولية إلى سبتمبر 1879م، انتقل فيها إلى باريس ثم لندن عن طريق إيطاليا؛ فكان له فيها نشاط دبلوماسي بأمر من حكومة الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل، قدم فيها تقريرا لرئيس مجلس النواب الفرنسي غامبيتا بغرض تبديل القنصل الفرنسي بتونس⁽¹⁵⁾.

خرج من تونس إلى الحج في أكتوبر 1879م مرورا بالإسكندرية والقاهرة بعد تعرضه لضغوطات من طرف الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل⁽¹⁶⁾، وبعد إتمام المناسك انتقل إلى بغداد ثم بيروت ثم الأستانة من جانفي 1880م إلى جوان 1881م، ومن مقر الخلافة قام

محمد بيرم بعدة رحلات، فمن جويلية 1881م إلى نوفمبر 1881م سافر إلى إيطاليا للالتقاء بعائلته القادمة من تونس بغرض بيع أملاكه، وانتقل في نفس الرحلة إلى سويسرا ثم ألمانيا ثم رومانيا فصربيا وبلغاريا، ثم عاد إلى الأستانة متفرغا للتأليف⁽¹⁷⁾.

في نوفمبر 1884م استأذن السلطان العثماني في العودة إلى تونس، غير أنه غير وجهته إلى القاهرة للإقامة بها مارا على اليونان، ومن أفريل إلى سبتمبر 1887م سافر محمد بيرم الخامس في رحلة استغرقت خمسة أشهر من مصر إلى إيطاليا وباريس ثم لندن، التي أجرى فيها محادثات مع شخصيات بريطانية في مقدمتهم اللورد سالسبوري (Marquess of Salisbury) رئيس الوزراء⁽¹⁸⁾، وبقي مستقرا بالقاهرة إلى وفاته سنة 1889م⁽¹⁹⁾.

2- عصر محمد بيرم الخامس والأوضاع العامة في تونس والبلاد الإسلامية:

1-2- عجز الدولة العثمانية وتزايد التدخل الأوروبي: عايش الشيخ محمد بيرم الخامس أوضاعا ميّزها ضعف وانحطاط العالم الإسلامي عامة وتونس خاصة في مختلف المجالات، كما عاصر تجارب الإصلاح الفكري والسياسي والاجتماعي التي بادر بها رواد كبار أمثال حمدان خوجة في الجزائر وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في المشرق ومدحت باشا في الأستانة بغرض الخروج من ذلك الواقع الحرج.

شهدت الفترة التي عاش فيها محمد بيرم تنامي التدخل الأوروبي في الشؤون الداخلية للدول الإسلامية، فصارت القوى الغربية تملّي سياستها على الحكومات، مستدرجة إياها إلى مزيد من التنازلات تمهيدا لفرض الاحتلال المباشر؛ خاصة بعد وقوع الخطر الفرنسي الداهم على مقربة من البلاد التونسية بسقوط الجزائر سنة 1830.

تعرضت الخلافة العثمانية في المشرق إلى مختلف أنواع الضغط والتهديد تحت مسمى ما كان يعرف بالمسألة الشرقية. ومن بين الأحداث التي عاصرها محمد بيرم الخامس حرب القرن بين سنوات 1853-1856م، التي أوقفت فيها الدول الأوروبية التهديد الروسي على الدولة العثمانية، لكن بمقابل تدخلها في الشأن الداخلي العثماني بإملائها على الحكام العثمانيين سياسات الإصلاح⁽²⁰⁾؛ كما شكّل مؤتمر برلين في جوان 1878م أحد المنعطفات الخطيرة في العلاقات العثمانية الأوروبية، فبموجب المعاهدة المنبثقة عن المؤتمر انحسرت الأراضي العثمانية في أوروبا انحسارًا حادًا؛ وفي 11 ماي 1881م فقدت الخلافة العثمانية

السيادة على تونس، بعد عقد معاهدة باردو بين الباي محمد الصادق وسلطة الحماية⁽²¹⁾، ثم في سبتمبر 1882م تحولت مصر إلى السيطرة البريطانية.

2-2- فشل الإصلاحات والعجز المالي في تونس: عرفت البلاد التونسية مظاهر الضعف وتشعب الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في مختلف الميادين رغم محاولات الإصلاح⁽²²⁾، وأشهر هذه المحاولات عهد الأمان الذي أصدره الباي محمد الثاني (1855-1859م) في سبتمبر 1857م بتأثير من القناصل الأجانب وبعض الأوروبيين بتونس، فضلا عن المقربين من الباي كالوزير المؤرخ أحمد ابن أبي الضياف⁽²³⁾، وفي سنة 1861م وضع الباي محمد الصادق دستورا للبلاد وكون المجلس الكبير النيابي، ثم أنشأ المجلس الخاص الاستشاري عام 1863م⁽²⁴⁾.

وللتقليل من آثار العجز المالي فرضت الحكومة على التونسيين الضرائب المنهكة ولجأت إلى الاستدانة الخارجية⁽²⁵⁾، وإلى تقديم الامتيازات السياسية والاقتصادية والثقافية للدول الأوروبية تحت مسمى الاتفاقيات، فقدم الباي امتيازات لبريطانيا سنة 1863م وإيطاليا سنة 1868؛ وأدى هذا الواقع المتدني إلى انتفاضة التونسيين بزعامة علي بن غداهم سنة 1864م، أعلن فيها الثوار العصيان والامتناع عن دفع الضرائب؛ فاستغلت القوى الأوروبية هذه الظروف للتدخل في الشأن التونسي، فطلبت فرنسا من الباي محمد الصادق إبطال الدستور وعزل بعض كبار الموظفين، ثم فرضت الدول الأوروبية على الباي إنشاء اللجنة المالية سنة 1869م بسبب عجز البلاد على تسديد الديون التي بلغت 60 مليون فرنك، وفي الأخير فرضت فرنسا الاحتلال المباشر في 11 ماي 1881م بإبرام الباي محمد الصادق معاهدة الحماية الفرنسية على البلاد⁽²⁶⁾.

3- النشاط العلمي والإصلاحي والسياسي لمحمد بيرم الخامس (بين تونس، إسطنبول ومصر):

1-3- نشاط محمد بيرم الخامس في تونس والمشرق: تبنى محمد بيرم منذ شبابه الأفكار الإصلاحية، وعمل في مختلف الميادين على بلورة رؤيته لتغيير الأوضاع السائدة، لهذا كانت مختلف الهيئات الرسمية في تونس وآستانة والقاهرة تستعين بكفاءاته وتستمتع لأرائه؛ ففي الجانب السياسي دعا إلى الحكم القائم على الشورى والعدل، لهذا كان في سنة

1860م من الداعمين لإنشاء المجلس الأكبر وقوانين عهد الأمان، وعرف عنه تحرير الرسائل والعرائض ذات البعد السياسي الإصلاحي التي كان يوجهها للمسؤولين، والتعبير عن مواقفه وآرائه في الصحافة⁽²⁷⁾.

ورغم سقوط حكومة الوزير الأكبر خير الدين باشا سنة 1878م وانتقاله إلى الآستانة فإن محمد بيرم سعى لمواصلة الإصلاح؛ ولم يكن هذا النشاط السياسي خال من المضايقات والأخطار بعد سقوط الحكومة، فاضطر إلى طلب رخصة لمغادرة تونس بنية الحج نالها بصعوبة⁽²⁸⁾، وفي هذا يقول محمد بيرم عن دوافع خروجه إلى المشرق "ثم رجوعي من هذه الثالثة نقض المذكور (الوزير مصطفى بن منصور) غزله وحملني على مفارقة الوطن"⁽²⁹⁾.

لم يتوقف محمد بيرم الخامس في المشرق عن نشاطاته الإصلاحية والسياسية، ففي القاهرة التقى الخديوي توفيق، وفي بغداد نال الإجازة في الطريقة القادرية من الشيخ سلمان القادري الجبلي نقيب الأشراف ببغداد، ثم أقام ببيروت حيث التقى بنخبته هناك عام 1880م⁽³⁰⁾؛ وفي الآستانة عرض على السلطان عبد الحميد الثاني تقريراً بشأن الإصلاحات في نظام الخلافة العثمانية، وبعد فرض الحماية الفرنسية على تونس قدّم تقريراً آخر في بيان حقوق الخلافة العثمانية على تونس⁽³¹⁾.

2-3- مؤلفات محمد بيرم الخامس: كان محمد بيرم الخامس مؤلفاً غزيراً الإنتاج في مختلف المواضيع ذات النزعة الإصلاحية و البعد الاستشرافي، منها رسائل تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص، ومختصر في علم العروض ورسالة في جواز إسدال شعر الرأس، ورسالة في أحكام الأشراف آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ورسالة في سكنى دار الحرب، وتقرير قدمه للسلطان عبد الحميد الثاني ضمنه ملاحظات سياسية حول التنظيمات اللازمة للدولة العلية انتهى منها سنة 1880م، ورسالة التحقيق في مسألة الرقيق باحثاً فيها عن كيفية معاملة الرقيق و مؤيداً منع الحكومات الإسلامية لتجارة الرقيق، ورسالة في الخيل كلّفه بكتابتها السلطان عبد الحميد الثاني ليبعث بها صحبة هدية خيول إلى فريدريك الثالث إمبراطور ألمانيا، ومن مؤلفاته كتاب الروض السنية في الفتاوى البيرمية⁽³²⁾، ورسالة تجريد السنن للرد على الخطيب رونان (المستشرق الفرنسي رينان)، ورسائله في جواز شراء أوراق الديون؛ ويبقى كتاب "صفوة الاعتبار" من أفضل الأعمال في ميدان الجغرافيا السياسية المحرّرة باللغة العربية، وهو من أهم ما ألفه محمد

بيرم الخامس، ففي الأستانة حرر الجزئين الأولين في ماي 1881م، ثم في فترة إقامته الثانية بالأستانة من نوفمبر 1881 إلى أكتوبر 1884م عكف على تأليف الجزء الثالث من الكتاب ورسالة التحقيق في مسألة الرقيق ورسالة بخصوص حب التونسيين للاستقلال؛ أما الجزء الرابع وأول الجزء الخامس فأنجزه في مصر عام 1889م؛ دَوّن في كتابه هذا رحلاته إلى أوروبا ومصر والشام والحجاز، مسجلا شهادته وملاحظاته، ومؤرخا فيه للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تونس⁽³³⁾.

4- الجزائر في صفوة الاعتبار:

4-1- قضايا في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر: كثيرا ما يقارن الشيخ بيرم في كتابه بين الجزائر وشقيقتها تونس، ومن ذلك عندما يتكلم عن تاريخ الجزائر في القديم والفترة الإسلامية، فهو لا يختلف عن تاريخ تونس والمغرب العربي، من حيث أصول السكان وخصائص الفتح الإسلامي، ولكنه عندما يصل إلى بداية الفترة الحديثة نجده يفرق بين طريقة انضمام البلدين إلى الدولة العثمانية، وهذا الفرق تؤكد الوثائق والمصادر التاريخية، حيث تم هذا الانضمام بالنسبة للجزائر بطلب من أهاليها، على خلاف الدول العربية التي انضوت تحت حكم الخلافة العثمانية بعد معارك ومواجهات، كما وقع الحال في تونس ومصر وبلاد الشام والعراق، في حين عجزت الدولة العثمانية على فرض سيادتها على المغرب الأقصى؛ ولكن كل ذلك تم في ظروف تاريخية مرتبطة بطبيعة العلاقات بين الشرق الإسلامي بقيادة الدولة العثمانية والغرب الأوروبي المتحرك بدافع حركة النهضة وقيام الممالك الأوروبية الحديثة⁽³⁴⁾؛ ولكن محمد بيرم الخامس يقدم تاريخا غير دقيق لطلب أهالي الجزائر الانضمام للدول العثمانية فيقول "وذلك في حدود 945 هـ 1528"⁽³⁵⁾، والأصح أنه كان سنة 1518 كما تثبته الوثائق والمصادر التاريخية والدراسات الأكاديمية.

يرى المؤلف في الفترة العثمانية- وهي الفترة الحديثة- مرحلة ايجابية في تاريخ الجزائر شأنها شأن تونس وليبيا، وهو نفس الموقف الذي يذهب إليه مؤرخو المدرسة التاريخية التقليدية في الجزائر أمثال مبارك الميلي وتوفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي، وكثير من المؤرخين المعاصرين أمثال مولاي بلحميسي وناصر الدين سعيدوني وأبو القاسم سعد الله وجمال قنان وغيرهم، ولكنه لا يتأخر في نقد بعض الأوضاع السياسية التي كانت سببا في تدهور الوضع العام في البلاد خاصة في العقود الأخيرة، والتي كانت من بين أهم أسباب

كارثة الاحتلال، من ذلك أنه أرجع كل المظالم وتراجع قوة الجزائر إلى تدخل الانكشارية في الحكم، سواء في الدولة العثمانية أو في الولايات التابعة لها، وينقل عن المؤرخ والسياسي التونسي ابن أبي الضياف نقدا قويا لسياسة حسين باشا، حيث جعله سببا رئيسا في دخول الفرنسيين لبلادهم بتجبره وقلة خبرته بنظام الحكم وسياسة الرعية، "وحصل منه إهانة لقنصل فرنسا وذلك على ما في تاريخ ابن أبي الضياف"⁽³⁶⁾، وقد أورد نصا طويلا له.

ولكن بيرم الخامس يرد عليه- ابن أبي الضياف- بكون موقفه ترفضه الشريعة ولا يقبله العقل والواقع، "وهو المشاهد بالعيان والمعلوم من التواريخ في اضمحلال الدول وتقهرها"، ونبه المؤلف ابن أبي الضياف وغيره إلى أن أسباب الاحتلال وسقوط الدول يجب أن يبحث علميا في ظاهرة الفساد والترف، فيقول: "وحذاق الناظرين في أحوال الدول ينسبون نكباتها لأصول منشأ الفساد وان طال الزمان..."، ويتبين لنا من هذه النظرة تأثره بالقرآن الكريم حيث تعددت الآيات القرآنية ونصوص الأحاديث النبوية التي تحذر من مرحلة الترف في حياة الأمم والحضارات، وهنا يقول المؤلف: "وذلك هو الدال عليه القرآن الكريم والحديث الشريف"، كما يبدو مطلقا على الآراء الكبرى في تفسير نهضة وسقوط الأمم والحضارات، وكذلك اطلاعه بالاتجاهات الكبرى في تفسير تطورات التاريخ مثل مقدمة ابن خلدون؛ ثم نراه يرجع الداء إلى أصله ومنبته، ويشخص حالة الجزائر فيؤكد أن: "...داء الجزائر قد ابتدأ منذ أن انخرم أمر الينكشارية في القسطنطينية، التي هي مقر الدولة العامة، فنشأ عنه ما نشأ من فساد الإدارة والولاية إلى أن أصيبت عدة جهات، وباء حسين باشا في الجزائر بإثم الظلم والخراب والتهور الذي كان أعظم النكبات..."⁽³⁷⁾.

وبالمقابل ينقلنا إلى الطرف الآخر محاولا تتبع أسباب الهزيمة، ويذكر أن من أسباب نجاح الحملة تطور فرنسا العلمي والعسكري ورغبتها في حب الظهور، ولعله يشير إلى مرحلة ما بعد مؤتمر فيينا في أوروبا عامة وفرنسا خاصة، وما صاحبها من تأثيرات حركة الاستنارة ونتائج الثورة الصناعية وتطور العلاقات الدولية في تحالفات جديدة كانت على حساب العالم الإسلامي، لذلك نراه يعذر الدولة العثمانية عندما عجزت على مساعدة الجزائر وقد انشغلت بحروبها وظروفها، خاصة بعد تحطم أسطولها البحري في نافارين "بخدعة انكليزية" كما أورد ذلك في موضع آخر من كتابه، ضف إلى ذلك خروج الولاية عن تعليمات

الدولة العثمانية ومنهم الداوي حسين⁽³⁸⁾؛ وهذا يبدو أن الشيخ محمد بيرم الخامس في "صفوة الاعتبار" مطلعاً على الظروف السياسية والعسكرية والتطورات الدولية في مطلع القرن 19 بصفة عامة، أما ظروف احتلال الجزائر وحيثيات الحصار البحري وخصائص العلاقات الجزائرية الفرنسية والجزائرية العثمانية في نهاية الفترة الحديثة لم يتكلم عنها، رغم أنه قرأ كتاب الإتحاف لأن أبي الضياف وربما المرأة وغيرهما⁽³⁹⁾.

يلخص الوضع السياسي العام في بداية الاحتلال بعد سقوط مدينة الجزائر، وموقف قوى المجتمع والولايات "فالجهات الشرقية من القطر انفرد بالحكم فيها الحاج أحمد باي والجهات الجنوبية والغربية تشتت تحت زعماء القبائل" وكلها رفضت الوجود الفرنسي⁽⁴⁰⁾.

أطال في تتبع مبايعة الأمير عبد القادر وأورد بعض الكرامات التي حصلت له في مواجهة الفرنسيين "إلى أن كان في بعضها ما هو خارق للعادة"، وتوقف في تحديد من المسؤول حول فشل الاتحاد بين المقاومين في الشرق بقيادة الحاج أحمد باي وفي الغرب تحت لواء الأمير، ويرى أن الأول رفض التعاون مع الثاني، وحمل المؤلف المسؤولية عندما "امتنع تجبرا وطغيانا وخذل الأمة إلى أن وهن أمره واستولى الفرنسيون على ما كان تحتته"، رغم أنه من بقايا السلطة القديمة ويعتبر استمراراً للسلطة الشرعية وخليفة للداوي حسين، إضافة إلى أن بيرم الخامس مقرب من الدولة العثمانية إلا أننا نلاحظه ينتقد بقوة موقف أحمد باي؛ أما هزيمة الأمير فكان من أهم أسبابها تخلي سلطان المغرب عنه وتعاونه مع الفرنسيين، ثم تتبع بعض ظروف استسلامه، وكيف تم سجنه بفرنسا بدل السماح له بالهجرة حيث يريد، وعلى عهد نابليون الثالث سمح له بالانتقال إلى الآستانة ثم دمشق⁽⁴¹⁾.

رغم أن المؤلف لم يتتبع مجريات المقاومات الشعبية في الجزائر خلال القرن 19، إلا أنه يورد الخصائص والنتائج العامة كما أوردتها جل المصادر التاريخية، منها تأكيد أكثر من مرة على استمرارية المقاومة بعد الأمير وان كانت ضعيفة: "وما زالت تتوالى المقاومة على الفرنسيين منذ دخولها إلى الآن تارة مشتدة وتارة خفيفة ولله عاقبة الأمور"⁽⁴²⁾، ولكننا نجد أنه يقدم معلومات غير دقيقة عندما يذكر "أن المغرب حارب الفرنسيين في الجزائر وانهزم"، فهل يقصد بالمغرب الموقف الرسمي أم الشعبي؟ فالقبائل المغربية خاصة منها الواقعة على الحدود الشرقية قدمت يد المساعدة، وحارب بعضها مع الأمير في البداية، ولكن لما ازداد ضغط فرنسا من خلال قصف مدينة طنجة وإرسال جيش من الجزائر

اضطر السلطان المغربي للاعتراف في معاهدة طنجة بأن الأمير عدو مشترك بينه وبين الفرنسيين وهو خارج عن القانون⁽⁴³⁾، والتزم بتوقيف كل أشكال المساعدة الرسمية والشعبية للأمير، بل أصبح يطارده ويحاصره من الناحية الغربية، وهو ما ذكره بيرم الخامس في موضع آخر، ولذلك فلا تذكر المصادر التاريخية ولا الوثائق أن سلطان المغرب تدخل بجيشه ضد الوجود الفرنسي في الجزائر، إلا إذا قصد بيرم إرسال السلطان مولاي عبد الرحمان ابن هشام لابن عمه على رأس فرقة من الجيش لتلمسان ولما وصله التهديد الفرنسي قام بنهب ما وقع تحت يده وابتزاز من سار معه ثم انسحب عائدا إلى المغرب، وفي هذا يقول ابن عودة المزابي: "وظهر في الوطن عبث المغاربة بالفساد والجور والظلم وعدم الرفق بالعباد..."⁽⁴⁴⁾، بل ان السلطان المغربي عرض عليه الباي حسن من قبل الانضمام اليه ولكن خوفه من الفرنسيين كان أشد من طمعه في الأقاليم الغربية من الجزائر فتغلى عن عرض الباي حسن رغم ما يفرضه عليه الدين والقومية وحقوق الجوار⁽⁴⁵⁾، وللباحث أن يتساءل عن مصادر المؤلف لتلك المعلومات غير الدقيقة.

ويؤكد المؤلف أن باي تونس اتخذ نفس موقف سلطان المغرب وتآمر على الجزائر فقبل بالعرض المقدم له من الفرنسيين بحكم بايلك الغرب بمقابل مالي، "فأرسل والي تونس واحدا من جهته مع شذمة من الحرس فلم ينفذ أمره في مدينة وهران فضلا عن خارجها ورجع من حيث أتى"⁽⁴⁶⁾، بعدما أحس خير الدين آغا- مبعوث باي تونس- بصعوبة المهمة ورفض الأهالي له فعاد في شهر أوت من سنة 1831 قبل وصول الأمير الحاج أحمد، وهي الصفقة التي عبر عنها الأستاذ سعد الله بقوله: "إن البائع والمشتري في هذه الحالة كلاهما لص من الدرجة الأولى"⁽⁴⁷⁾، وقد جاءت هذه المغامرة الفاشلة بعد اتفاق- لم يذكره الشيخ بيرم التونسي- بين باي تونس وقائد جيش الاحتلال كلوزيل في 18/12/1830 تضمن بيع إقليم قسنطينة بـ مليون فرنك ولكن وجود أحمد باي به وكان لا يزال قويا قد أفشله⁽⁴⁸⁾.

2-4- السياسة الفرنسية في الجزائر: يبدو أن معلومات المؤلف عن السياسة الفرنسية وانعكاساتها في الجزائر بسيطة، وهذا رغم أنه زار الجزائر بعد نصف قرن من الاحتلال كانت كل المظاهر السلبية للسياسة الاستعمارية قد ظهرت جليا في كل الميادين، وكثير من التشريعات الفرنسية في الأرض والقضاء والدين والتعليم وغيرها قد كشفت عن تحطيم كل

قدرات ومقومات المجتمع، بل حرص المشرع الفرنسي على عدم تمكين الشعب من الوقوف على رجليه مرة أخرى، فهل يعود هذا لمحدودية الأيام التي قضاها بالجزائر أم لقلة المصادر التي اطلع عليها حول أعمال الإدارة الاستعمارية بالجزائر؟ ولسنا ندري هل اطلع على كتاب "المرأة" لحمدان خوجة المكتوب بالفرنسية أم سمع به فقط وقد ذكره في مؤلفه، وهو من أبرز من أرخ لجرائم واعتداءات الاحتلال على الدين والملكيات ومؤسسات المجتمع في السنوات الأولى.

من المعلومات العامة والبسيطة- في حينها- التي أوردها المؤلف أن حكم الجزائر كان مركزيا من باريس، وأن العسكريين يحكمون الأهالي حكما استبداديا، والدولة الفرنسية منعت الأهالي من الحرية السياسية "وتركت لهم بعض الحرية الشخصية في التصرف في أموالهم وأشخاصهم وديانتهم بما لا يضر بالدولة ولا بأحد في نظر الحكام"، ولعله يقصد تراجع صلاحيات القضاء كما سيرد لاحقا⁽⁴⁹⁾.

ذكر المؤلف أهم المناصب الإدارية والعسكرية في البلاد وكيف يولى أصحابها من الحاكم العام إلى الولاة والأغوات وشيوخ القبائل، وكيف تتم جباية الضرائب والمظالم الواقعة على الأهالي حتى تصل إلى الاستيلاء على الأموال والأموال بشبهة وبدون شبهة⁽⁵⁰⁾، "ولا معقب لتلك الأحكام وقد ابتدأ ذلك العمل منذ دخلوا الجزائر". ومن مصادره حول ما يقع من مظالم في الجزائر اطلاعه على جريدة "المبشر" الرسمية للإدارة الفرنسية والوحيدة باللغة العربية يومها، فأورد منها أخبار "الثقاف" - حجز ومصادرة الأراضي والأموال - التي تنشرها السلطات الرسمية وهي مصادرة لم تكن للثوار فقط كما يذكر المؤلف ولكن حتى للمعارضين وللأراضي التي يرغب المستوطنون في الاستيلاء عليها، وقد تتبع عملية المصادرة للأموال وجباية الضرائب واعتبرها معاملة قاسية تصل إلى "العقاب البدني الشديد"⁽⁵¹⁾.

يورد بيرم الخامس حقيقة الحكم المدني الفرنسي في الجزائر، تلك الحقيقة التي لم تصرح بها المصادر الفرنسية وكشفتها اليوم الوثائق الإدارية وشكاوى الجزائريين، وتتمثل هذه الحقيقة أن لا فرق بين الحكم المدني والعسكري عند الجزائريين، ولا أدل على ذلك من استمرار المظالم وأبرزها قانون الأهالي الذي منع الجزائريين حتى من التوجع من اعتداءات السلطة الاستعمارية والمستوطنين⁽⁵²⁾.

وأكد أنه قابل بعض الفرنسيين في الجزائر وفرنسا واعترفوا له بظلم الإدارة ووجوب منح الحرية للجزائريين، "وعلى هذا الرأي قسم وافر من أهالي فرنسا" يعني في فرنسا⁽⁵³⁾؛ وهذا ما يدل على أنه كان يطرح ويناقش بعض قضايا الجزائريين مع النخب السياسية والإعلامية في فرنسا والجزائر، في مسعى لم نسمع غيره من التونسيين أو العرب قام به في هذه المرحلة⁽⁵⁴⁾.

لسنا ندري ما هي الظروف السياسية والأمنية التي رافقت المؤلف أثناء زيارته للجزائر وفرنسا، ولماذا نجده في بعض الأحيان يمدح بعض الحكام والسياسات الفرنسية، مثل إعجابه بموقف الإمبراطور نابليون الثالث وتفهمه لموقف الشعب وأنه- الإمبراطور- زار الأهالي في الداخل منفردا واتخذ منهم حراسا خاصين، وذادوا عن فرنسا في حربها ضد الألمان أكثر من الفرنسيين⁽⁵⁵⁾؛ ويورد بيرم ملخص خطاب نابليون بعد عودته من الجزائر في رحلته التي عاصرت ثورة بن غداهم (يقصد زيارته الثانية سنة 1865)، وقوله انه لم ينتقم من الأهالي، دون إن ينقده ويكشف عن المعاناة التي عاشها الجزائريون في عهده، والمظالم التي لحقت بهم وبأملأكمهم وهويتهم من خلال مرسومي مجلس الشيوخ لسنة 1863 و1865 المتعلقين بأراضي العروش والجنسية على التوالي⁽⁵⁶⁾؛ ورغم ذلك قال بيرم أن نابليون احتوى ثورات الستينات فـ "مهّد الثورة بلطف وتحبب للأهالي بسعيه بنفسه"⁽⁵⁷⁾ ولكنه لم ينتقد خطابه⁽⁵⁸⁾.

ونراه كذلك يقدم تفسيراً أو استنتاجاً يدل على المعرفة البسيطة للمؤلف بخبايا سياسة نابليون الثالث أو ما عرف بخرافة "المملكة العربية"، فيرى أن وفاء الجزائريين لنابليون كان من أسباب تفضيلهم للنظام العسكري، لا سيما وأنه هو الذي أدخلهم المجلس العمومي "ولكنهم أعضاء صورية"، ورفضهم الثورة ضد فرنسا بعد سقوطها سنة 1870، إلا ثورة محدودة في نظره وهي انتفاضة 1871 التي قادتها الزاوية الرحمانية وتمكنت من تهديد الوجود الفرنسي في الشرق والوسط، ويبدو أن أخبارها وانعكاساتها على الجزائريين كانت محدودة عند بيرم الخامس⁽⁵⁹⁾.

قدم باختصار تطبيقات قانون الجنسية واعتبر خطأ أن "للأفراد أن يدخلوا في الجنسية (الفرنسية) باختيارهم بحيث لا غصب فيها، وقد دخل فيها كثير بعضهم للشهوات وبعضهم تملقا لليهود وبعضهم طلبا للرتبة العالية العسكرية وهو وإن نال شيئا منها فهو

مهان في اعتبار النفوس، لما يوجب ذلك من امتنانه لدينه في نظر العموم ولو من الفرنسيين⁽⁶⁰⁾، وللباحث أن يتساءل ما المقصود بقوله "وقد دخل فيه كثير"، والإحصائيات تكشف عن نسبة من تجنس، فبين 1865 و1870 قبل بالقانون 371 فردا وأغلبهم ممن درس وتوظف لدى الفرنسيين، وهم في نظر الشعب استهانوا بدينهم وقوميتهم فأهانهم وعزلهم أحياء وأمواتا⁽⁶¹⁾.

لخص بيرم جهاد حمدان خوجة بين الجزائر وفرنسا وقدم معلومات جديدة- في حينها- عن موضوع الكتاب "مرآة الجزائر" وطريقة تأليفه ومكوته عند سفير الدولة العثمانية بباريس السيد مصطفى رشيد باشا، قبل أن ينته به الحال في اسطنبول، وقدم بعض أخبار عائلته مثل ابنه علي باشا الذي كان من أعيان الدولة في اسطنبول⁽⁶²⁾؛ ولسنا ندري إن كان حصل على تلك المعلومات من عائلته أم بعض أصحابه في الدولة العثمانية، وهي معلومات دقيقة ومهمة قلما نجدها في الوثائق والمصادر.

3-4- عن القضاء الشرعي والقضاء الفرنسي بالجزائر: قدم صورة واضحة عن حالة القضاء الإسلامي وحال القضاة بعد نصف قرن من تدخلات التشريعات الاستعمارية والموظفين والمؤسسات الفرنسية، فذكر ما بقي للقضاة من صلاحيات وماذا أخذ منهم القضاء الفرنسي، وحذر من الدور السلبي للأعوان المسلمين بالمحاكم الفرنسية الذي أضر بالأهالي، وأورد لنا حادثة حضرها بمجلس حكم فرنسي في قضية أهلي بمدينة عنابة. كما أورد لنا بعض أسباب فساد فئة من القضاة وموظفي المحاكم الفرنسية من المسلمين، مثل طريقة اختيارهم من طرف الإدارة؛ و"على هذا النحو في عدم الجدارة جمع من قضاتهم فلا يتقون الارتشاء ولا يحسنون حفظ ناموس المنصب، حتى شاهدت قاضيا في عنابة يتلاطم ويتخاقق مع الخصوم ويجلس في الحانات مع الأراذل مم يتنزّه عنه أعضاء مجالس الحكم"⁽⁶³⁾.

ولكنه لم يبرز باقي الأسباب السياسية والعلمية والاقتصادية التي رمت بعضهم في ميدان الرشوة والفساد، والنتيجة هي استغلال إدارة الاحتلال في نهاية القرن 19 لهذه الوضعية لزيادة اعتداءاتها على حقوق القضاء وعلى ما تبقى من القضاة الزهراء، الذين عارضوا التشريعات الفرنسية في القضاء والأرض والهوية؛ وإذا كانت رحلته إلى الجزائر سنة 1879 قد عاصرت احتجاجات النخب السياسية والعلمية ومن ورائها الأهالي ضد السياسة

القضائية للاستعمار الفرنسي، فهو قد التقى بعدد من تلك النخب خاصة في مدينة الجزائر وعنابة وقلمة، الذين عملوا واحتكوا بميدان القضاء والفتوى، وأدركوا مظالم السياسة الفرنسية عليهم وعلى قضائهم وشريعتهم، فعارضوها عن طريق الصحافة والعرائض والاحتجاجات وعبر المؤسسات الفرنسية⁽⁶⁴⁾، ولكنه لم يكشف في كتابه عن موقف هؤلاء من السياسة الفرنسية تجاه القضاء الإسلامي وضغوطها القوية على القضاة، خاصة وأن هذا الجيل قد عاصر ما سمي بالحملة على القضاة بالعزل والسجن وحتى تعرض بعضهم للقتل⁽⁶⁵⁾.

5- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية:

1-5- الحياة الاقتصادية والاجتماعية: اقتصاد الجزائر عند الشيخ محمد بيرم الخامس هو اقتصاد المستوطنين والدولة الفرنسية أولا والجزائريين بدرجة ضعيفة، فالتجارة الخارجية بيد الفرنسيين أولا ثم الإسبان والإيطاليين وبدرجة أقل الانكليز والأهالي، والتجارة الداخلية بين الفرنسيين والأهالي على نحو ما هو في تونس، وفرنسا هي المتحكمة فيما وجد من معادن كمعدن الحديد في عنابة والفضة في قلمة⁽⁶⁶⁾؛ وقال عن ميناء عنابة "وهو ميناء صناعية واسعة ومتينة" وتشحن منه يوميا باخرة من معدن الحديد نحو مرسيليا⁽⁶⁷⁾؛ ولكنها كانت معلومات عامة حول ما بقي بيد الجزائريين من التجارة الداخلية بعدما استولت المؤسسات التجارية الاستعمارية وكبار المستوطنين على المادة الأولية لعدد من الصناعات والمحاصيل الزراعية، كالصوف والحديد والقمح وغيرها⁽⁶⁸⁾، فكانت سلطات الاحتلال مسؤولة عن تدهور عدد من القطاعات الحرفية، وأصبح القطاع الفلاحي -زراعي وحيواني- في خدمة الاقتصاد الاستعماري، وهذا الواقع المؤلم عانى منه الجزائريون بداية من الثلث الأخير من القرن 19، وكان بيرم قد قدم بعض المعطيات عن تأخر الصناعات الحرفية في الجزائر عن نظيرتها في تونس دون تقديم الأسباب⁽⁶⁹⁾.

لاحظ بيرم الخامس أن قطاع البريد برا وبحرا بيد الفرنسيين، وبمدينة الجزائر بنكا كالذي في أوروبا⁽⁷⁰⁾؛ وفي الحقيقة في نهاية القرن 19 أصبحت توجد مجموعة من البنوك بالقطر الجزائري خاصة وعامة، تمون نشاطات المستوطنين وتثقل كاهل الجزائريين بالقروض الربوية التي استولت بها على أملاكهم⁽⁷¹⁾. وأورد بعض انجازات ومشاريع فرنسا في سكة الحديد داخل البلاد وخارجها، ورغم أن المؤلف أشار في البداية إلى علاقة هذه

المشاريع بالحركة العسكرية أكثر من الحركة الاقتصادية في قوله: "ولتسهيل طرق التجارة وان شئت قلت لتسهيل الحركة العسكرية امتدت طريق الحديد..."، وذكر المشاريع التي تربط الجزائر بدول الجوار شرقا وجنوبا إلى غاية السينغال وممالك السودان⁽⁷²⁾؛ ولكنه لم يحدد علاقة توسيع شبكة السكة الحديدية بتوسع الاستعمار في الجزائر وأفريقيا وقد رافق هذه العملية محاولات الاستيلاء على القوافل التجارية بين الصحراء والشمال.

تحت عنوان "مطلب في الصنایع وغيرها بالجزائر" يقارن بين الوضع في الجزائر وتونس في بعض النشاطات الفلاحية والحرفية، وينتهي إلى أن القطاعات التي تدخلت فيها اليد الأوروبية تطورت وتحسنت مثل الفلاحة في الناحية الشمالية، وأما القطاعات التي بقيت في يد الأهالي فحالها حال نظيرتها في تونس، إلا في بعض المنتجات الحرفية والنسيجية منه خاصة، كتفوق البرنوس العباسي- يقصد منطقة بني عباس بضواحي مدينة بجاية- على برانيس تونس، وكذلك "لباس النسوة أحسن سترة منهن في تونس لأنه متدي"، "وأما باقي الصنایع فإنها على نحو ما بتونس، مع الانحطاط في الدرجة لا في الكمية ولا في الكيفية".

أما المدن الجزائرية الحديثة فيبرز فيها تداخل الأحياء العتيقة بالمباني والشوارع الأوروبية الجديدة، هذه الأخيرة التي تعتبر "أنظف وفيها إنارة وتشبه نظيرتها في فرنسا"⁽⁷³⁾، وقدم وصفا مفصلا لمدينة عنابة وساحاتها وبيوتها وحوانيها التي أعجب بها، وحرارتها التي لا تختلف عن حارات تونس، وأعجب بسوق الخضار بها المبني على الطراز الأوروبي، بقبعته الزجاجية المرفوعة على قطع حديد، وهو نظيف وقُسم بين الباعة دون بناء حوانيت داخله، كما ذكر بعض الآثار الرومانية المزارة للتفرج وحدائق المدينة للتزهر⁽⁷⁴⁾.

كثيرة هي المصادر الغربية وقليل من المصادر المحلية التي تعرضت للحياة الاجتماعية في الجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة، ولكن الشيخ بيرم الخامس يكشف لنا عن خلفية انتقال بعض مظاهر المجتمع الأوروبي إلى الجزائر خلال القرن التاسع عشر، فينبهنا إلى بعض العادات والسلوكيات الاجتماعية الدخيلة وظروف انتشارها في الجزائر⁽⁷⁵⁾؛ ففي الفصل الرابع ينتقل للكلام عن أخلاق وعوائد الجزائريين التي "هي مثل ما في أهالي تونس في السلام والحياء"، غير أنها بدأت تتغير مع الجيل الجديد في المدن، ويقدم تفسيراً حضارياً للظاهرة، إذ يعتبرها نتيجة اقتداء المغلوب بالغالب كما يقول ابن خلدون، ولكن "أغلب ما تسري إلى النفوس (المنهزمة) الأخلاق الشريرة"⁽⁷⁶⁾.

يقدم مرة أخرى تفسيراً لانتشار الأخلاق السيئة بين الفرنسيين والجزائريين، فيرى أن الفرنسيين في بلادهم جُبلوا على الحريتين الشخصية والسياسية، والثانية قيدت الأولى، أما في الجزائر فهم لا يملكون الحرية السياسية "فانبعثت القوات كلها إلى الأولى مع ملائمة الطبائع النفسانية فأتوا على كل ما يمكنهم التوصل إليه من الفسوق وقبائح الكلام والتزوج بين كل متراضين من دون النظر إلى ديانة ولا صحة شرعية..."⁽⁷⁷⁾، ويقصد هنا العلاقات الزوجية الطبيعية وغير الطبيعية بين مختلف الأجناس الأوروبية وبينهم وبين اليهود، ويضيف من أسباب ظاهرة انتشار الأخلاق السيئة أن الحكام العسكريين يكثر من السب والشتيم وأن السيرة العسكرية الاستبدادية تميل إلى الانهماك في الشهوات⁽⁷⁸⁾، وليست لهم سلطة باريس تردعهم ولا عادات المجتمع الفرنسي فيخجلون منها، وقلدهم صغار الأهالي على اعتبار "أن الناس على مذهب أمرائهم"، وأما أهالي القرى والجنوب فما زالوا متمسكين بأخلاقهم وعاداتهم⁽⁷⁹⁾، وقد سعى رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر إلى نقد الكثير من تلك العادات السيئة ودفعها عن الجزائريين⁽⁸⁰⁾، ومن عادات الأوروبيين أيضاً أن: "في طبعهم نوع من الحدة والنشاط ولهم ولع بالفروسية والملاهي على نحو ما في أوروبا، وفي بقية القرى والبوادي على نحو ما ذكر في تونس"⁽⁸¹⁾.

ولاحظ بيرم كذلك بعض عادات الجزائريين الصحية القديمة التي لا توجد في تونس، فهم قبل دخولهم منازلهم ينزعون أحذيتهم في "السقيفة" ويلبسون أخرى أو يدخلون حفاة "تحفظاً على النظافة والطهارة"؛ ويميّز أثناء وجوده بمدينة عنابة فوارق بين الحمام الافرنجي والعربي، فالأول "أبعد عن المحرم من كشف العورة"، وبيوته صغيرة وضيقة وذكر كل جزء منه وكيفية الاغتسال فيه، أما الحمام العربي فهو أنظف من حمامات تونس ولكن ليس فيه بيوت منفردة، ولذلك فأكثر من فيه مكشوف العورة"، وهي مصيبة عامة في أغلب البلاد الإسلامية التي رأيتها على خلاف تونس...⁽⁸²⁾، وفي الحمام العربي ينقل الماء للتطهر- بعد التنظيف- من بعيد في جلد ماعز في نحو برميل⁽⁸²⁾. ثم قدم وصفاً لجامع المدينة الذي دخله بعدما خرج من الحمام، فهو واسع ونظيف، وفراشه من الحصير كجوامع تونس وله حارس واقف عليه.

بعدما صلى تجول في المدينة ثم دخل مطبخاً عربياً لمسلم فأعجب بأكلته أيما إعجاب، وهنا يستوقفنا أمران في شخصيته، أولهما أصالة المؤلف وحنينه لكل ما له صلة

بدينه وقوميته حين يقول فطرت- أكلت-: "في حانوت لطباخ مسلم أكلا عربيا واستلذذته للغاية"، وثانيا شدة اشتياقه للأكل العربي مما يدل أنه لم يألف الطبخ الأوروبي، ثم يقدم تفسيراً كعادته لهذه الظاهرة حيث يصعب على المرء أن يعتاد على الجديد لا سيما إذا كان لا يتلاءم مع قيمه وعاداته⁽⁸³⁾.

وأخراً يمكن الإشارة إليه في الوضع الاجتماعي هو أثر المجتمع الأوروبي السلبي على اللغة العربية، فتعرض المؤلف للتحريف الذي لحق باللغة العربية كما هو الحال في تونس، واستغرب بعض الكلمات التي لا توجد في مدن وقرى بلاده رغم فصاحتها، وان تغير نطقها ويورد كلمة "أدروك" بمعنى أنظر ومعناها أدرك بكسر الراء، والظاهر أن دخول الكلمات الفرنسية على اللسان الجزائري لم تظهر جلية بعد نصف قرن من الاحتلال وإلا كان المؤلف قد نبه لذلك؛ كما لاحظ بقاء اللسان الأمازيغي في بعض المناطق كما في زواوة وبلاد ميزاب، ولم يقارن هذه الحالة بما عليه الوضع في تونس باعتبارها أن الظاهرة كانت موجودة كذلك في المغرب الأقصى⁽⁸⁴⁾.

2-5- الحياة العلمية والثقافية (مسائل فقهية- أخبار علماء ومشايخ- أوضاع التعليم):
تعرض الشيخ محمد بيرم الخامس في مجال الحياة العلمية والثقافية إلى مجموعة من المسائل نوردها فيما يلي:

- مسائل علمية وفقهية: هذه المسائل كانت تثار في المجلس العلمي بالحواضر الذي كان يحضره كبار العلماء والمفاتي والقضاة، ولكن تراجع دور هذه المؤسسة بعد الاحتلال إلى أن اختفت في نهاية القرن التاسع عشر⁽⁸⁵⁾، وعوضتها اللقاءات المحدودة بين العلماء ومجالس الدرس والفتوى التي يحضرها العامة والخاصة؛ ومنها ما ذكره الشيخ بيرم أثناء وجوده بمدينة عنابة ودخل الجامع "بالنعل كالخف مما يصح المسح عليه"، وأنكر بعض ممن كان فيه عليه ذلك، وبعد محاوره مع أحدهم وهو مالكي المذهب طالبه الشيخ بيرم بالرجوع إلى مختصر الشيخ خليل "بكتاب الطهارة"، حيث يسمح للمسافر بالمسح على الخفين بدل نزعهما، وأضاف له بأن الأحاديث المروية تجيز هذا حتى للمقيم، وقد تمكن من إقناع صاحبه الذي "رضي بذلك وأخبر الحاضرين جهره بأن الرجل مسافر وعارف بالحكم"⁽⁸⁶⁾.

والمسألة الثانية قدم فيها المؤلف موقفه من هجرة العلماء من الجزائر في هذه الظروف، وهذا حين حادثه المفتي المالكي علي بن حفاف في الهجرة، فنصحته الشيخ بيرم

بالبقاء لحاجة البلاد والعباد وتعلم الدين لأمثاله، خاصة وأن خروجه يشجع غيره، ومما استدل به من فتاوى الأولين "حتى أن الأسارى إذا لم يمكن فداؤهم جملة فيؤخر منهم العلماء" وهو ما يدل على فقه وسعة اطلاع المؤلف بمثل هذه المسائل⁽⁸⁷⁾، ويمكن إضافة هذه المواقف إلى سجل مجموعة من العلماء حول مسائل الهجرة خاصة تلك التي رافقت سقوط الأندلس واحتلال الجزائر⁽⁸⁸⁾.

- العلماء والمشايخ الذين التقى بهم: التقى الشيخ بيرم الخامس التونسي بمجموعة من العلماء والمشايخ في مدينة الجزائر، فاجتمع مع المفتي المالكي الشيخ علي بن الحفاف واعتبره صاحب "فضائل كاملة وتقوى وسكينة واطلاع والسعة في الفقه والحديث"، ونصحه بالبقاء في الجزائر لحاجة البلاد والعباد له ولأمثاله؛ والتقى كذلك بالمفتي الحنفي أحمد بوقندورة، وشهد له بتمكنه من المعارف السياسية واتقانه للغة الفرنسية، "وله مشاركة في الفقه والحديث والمدافع عن أهل وطنه"⁽⁸⁹⁾، ولكن الدارس لحياة ونشاط أحمد بوقندورة يجده دون هذه الأوصاف والقدرات والمساهمات، خاصة إذا قورن بمعاصريه من العلماء والسياسيين أمثال المكي بن باديس وأحمد بن رحال وحسن بن بريهمات وعبدالقادر المجاوي وغيرهم، بل كان هو أكثرهم تعاوناً مع الفرنسيين وتفهماً لهم، وذكر بيرم أنه زاره في مقصورة المسجد الذي كان به إماماً وخطيباً -لعله المسجد الحنفي وهو مسجد "المسكة" أو ما يعرف بالجامع الجديد- كما كان عضواً بمجلس ولاية الجزائر، وقد تناول معه الغداء في بيته العربي ببستانه "وهو بستان ظريف بشكله العربي والأوروباني"، ولعل الظرف الذي زار فيه تلك الشخصيات والمدينة وقصر المدة لم تسعفه بتميز تلك الشخصيات والتعرف على أدوارها.

وممن اجتمع بهم نقيب الأشراف سيدي قدور الشريف والعالم المتقن علي بن موسى نقيب زاوية عبد الرحمان الثعالبي، هذا الأخير الذي اعتزل المناصب وتفرغ للعبادة والمطالعة، وذكر "أن له أشعار جيدة"، وكذلك السيد الوجيه الشريف الصفصافي وغيره من الأعيان⁽⁹⁰⁾؛ وممن لقيه خارج مدينة الجزائر الفقيه النبيه قاضي قالمة السعيد بن شتاج "وهو مشارك في الفنون الآلية وله اطلاع حسن في الفقه مع عفة واستقامة"، يعتبر هذا القاضي من أشهر قضاة الجزائر في هذه الفترة خاصة بعد تعرضه لمؤامرة من الإدارة الفرنسية حتى عزل من منصبه في بداية الثمانينات من القرن التاسع عشر⁽⁹¹⁾.

من الشخصيات الجزائرية التي سعى للقائها ولم يكتب له القدر الأمير عبد القادر، وهذا أثناء رحلته إلى اسطنبول في بداية سنة 1880، وعندما كان ببيروت رغب في زيارة دمشق "لرؤية معالمها العظام وملاقاة السيد الأمير عبد القادر الجزائري"، ولكن تعذر عليه الحال لضيق الوقت وانقطاع الطريق بالثلوج فتوجه مباشرة إلى القسطنطينية حيث وصلته رسالة من الأمير لما علم برغبة بيرم بزيارته ولم تسعفه الظروف، وكانت رسالة مختصرة يرحب به ويعترف بعلمه وفضله، وقد أوردتها كاملة في كتابه⁽⁹²⁾.

كشف المؤلف في كتابه أنه أحب وتعلق بزعيم الطريقة التيجانية وهو الشيخ أحمد التيجاني، وقد أورد مقطعا من قصيدة استغاث بها أحد علماء تونس، وسماه "بالقطب الشيخ أحمد التيجاني"⁽⁹³⁾، والقصيدة قيلت في ظرف انعكاسات ثورة بن غداهم وما صاحب البلاد من نكبات سياسية وأزمات اقتصادية وفتن في ستينات القرن التاسع عشر⁽⁹⁴⁾.

إضافة إلى الشخصيات الجزائرية التقى بمجموعة من العسكريين والإداريين الفرنسيين، كحاكم وهران، وقائد البحرية، وأعجب بعقل ومعارف نائب الحاكم العام "الصدوق في الكلام دون محابة" والعارف بلغة الأهالي، وتمنى أن يكون سائر الموظفين الفرنسيين مثله⁽⁹⁵⁾.

- حالة العلوم والتعليم بالجزائر: قسم محمد بيرم التونسي العلوم الموجودة في الجزائر إلى قسمين: دينية ورياضية، ويقصد بالقسم الأول العلوم الدينية والنقلية المعروفة منذ قرون، والتي يرى أنها تراجعت بتراجع المدارس والمدرسون، ويحدد ما بقي من المدرسين في مدينة الجزائر بعشرة، وأن "أكثر الاجتهاد في هذه العلوم اليوم موجود في قسنطينة ثم تلمسان"، وفي القرى والجنوب يدرسون في الزوايا ثم يرحلون إلى تونس والمغرب للاستزادة، وفي رأيه يوجد في الجزائر الكثير من طلاب العلم ولكن قلّ فيها المتضلعون فيه، "لأنه ليس في أوطانهم علماء فحول وإنما يقرؤون صغار الكتب"، ومنهاجهم في الفقه حفظ مختصر خليل وفهمه، ومن تفوق في العلوم في المدارس الخارجية قلما يرجع إلى وطنه، وهي ظاهرة كانت موجودة في الجزائر في الفترة الحديثة ولكن بدرجة أقل، وهذا لغياب مؤسسات علمية كبرى، واستفحلت في عهد المؤلف للظرف السياسي الذي أفقر البلاد من العلم وأدواته.

لعل من أبرز أدوات العلم التي كانت متوفرة واستولى عليها الاحتلال الفرنسي هي الأوقاف، التي كانت تصرف على المؤسسات العلمية والدينية وعلى المدرسين والطلبة وتجهيزات الكتاتيب والمساجد والزوايا، فأصبح المدرسون والأئمة والقضاة وغيرهم موظفين لدى إدارة الاحتلال، تمنح لهم الرواتب المحدودة وتراقبهم وتستغلهم لمخططاتها ما أمكنها الحال، وهذا بعدما "استولت على جميع الأوقاف والمساجد واقتصرت في كل بلد على عدد مخصوص من المساجد وغيره تصرفت فيه بما يناسبها وحرمت المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين"⁽⁹⁶⁾.

ومن العلوم الدينية التي لا تخص الجزائريين ما تعلق بالمسيحية ولا تتدخل الدولة فيه ولكن يشرف عليه القسيسون⁽⁹⁷⁾، كما تنشط معهم هيئة الجزويت التي تحسن فن التربية والتعليم وتقدم مناهج في العلوم الدينية والرياضية؛ وكشف أن حركة الجزويت تجاوزت المهمة العلمية لأتباع الطائفة إلى عملية تنصير أبناء المسلمين مستغلين المجاعات، وكان الكثير منهم يفر إلى أهله عندما يكبر، وبعد سنة 1881 قيدت حركة هذه الهيئة في فرنسا وعموم أوروبا ووصل أثر ذلك لنشاطهم في الجزائر، وهذا ليس رحمة بالجزائريين على حد قول المؤلف⁽⁹⁸⁾.

أما القسم الثاني من العلوم المتعلق بالمعارف الرياضية فتقدمه المدارس الفرنسية، وما هو موجه لأبناء الأهالي قليل جدا والعالي منه موجود في باريس فقط، وقد حضر المؤلف بعض امتحانات التسجيل للبنين والبنات بمدينة عنابة وقدم وصفا للعملية.

أما عن التدين فيفرق بين المدينة والريف، ففي الأولى ما زال الأهالي يعرفون دينهم وان تراجع التمسك بالشعائر، "وأما البوادي فيغلب عليهم الجهل بالأحكام لكنهم ما زالوا متصلبين في العقيدة الإسلامية، سيما أهالي الجهات الجنوبية والوسطى"، وهم على مذاهب أهل السنة في العقيدة وعلى مذهب مالك في الفروع، إلا فئة قليلة على مذهب الأحناف وبعض الجهات على مذهب الاعتزال كبنى ميزاب⁽⁹⁹⁾.

خاتمة: توفرت لمحمد بيرم الخامس شروط التحصيل العلمي فهو ينتهي لأسرة عريقة في النسب ذات جاه وعلم وسلطان، وأضافت له الرحلات إلى أوروبا والمشرق زيادة في الكفاءة والنبوغ، لهذا كان محل تقدير عامة الناس وخاصتهم من النخبة والفئة الحاكمة؛ وبرزت مساهماته العلمية والسياسية والاجتماعية من خلال وظائفه وأعماله وتأليفه، وبهذا يمكن

اعتباره بحق أحد رواد الفكر الإصلاحي الإسلامي الحديث، إلى جانب خير الدين التونسي وعبد القادر المجاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم .

من خلال كتابه "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" يبدو أن بيرم الخامس أعجبه كثيرا سياسة ومعاملات الفرنسيين وحكامهم لأهاليهم في فرنسا، ونسي مقارنة تلك السياسة بما يقوم به نوابهم العسكريون والمدنيون في الجزائر، لهذا جاءت الكثير من المعلومات المتعلقة بالسياسة الفرنسية في الجزائر بسيطة وعامة.

أفادنا كتابه كثيرا في الجانب الثقافي وفي تلك اللقاءات التي جمعت به بعض العلماء سواء في مدينة الجزائر أو قلمة، وكذلك بحالة القضاء ومستوى بعض القضاة الأخلاقي والعلمي الذي أصبحوا عليه في نهاية القرن التاسع عشر؛ إضافة إلى أنه صحح بعض المواقف المتحيزة لابن أبي الضياف حول ظروف احتلال الجزائر، وبهذا يمكن اعتبار كتابه مصدرا يضاف لمصادر تاريخ الجزائر خاصة في الفترة الحديثة والمعاصرة حيث قلت المصادر المحلية والعربية؛ وتبرز كذلك مساهماته العلمية النوعية في تلك التفاسير التي يقدمها لبعض الظواهر التاريخية، كأسباب احتلال الجزائر وظروف تغير عادات وأخلاق الجزائريين في عهد الاحتلال، وكذلك سبب سوء أخلاق الجزائريين وغيرها، وهو ما يدل على سعة اطلاعه ومتانة تكوينه.

يمكن في الأخير اقتراح هذا المصدر وغيره من كتابات المؤلف كموضوعات لمذكرات التخرج لطلبة الماستر، ومقارنة المادة العلمية التي تضمنتها مع المصادر المحلية والعربية وكذلك الكتابات الأوروبية المعاصرة له، وبالنسبة للمصادر المحلية والتونسية فكتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" يمكن أن يجد فيه الباحثون الكثير عن التراث المشترك بين البلدين خاصة وأن المؤلف نفسه لم يكن يشعر بغربة الوطن في الجزائر.

الهوامش

1- محمد بيرم الخامس- صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار - تحقيق محمد بن الطاهر الشنوفي- ط2- المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)- تونس 1999- ص85/خير الدين بن محمود الزركلي- الأعلام- ج7- ط15- دار العلم للملايين- بيروت- 2002- ص101

2- محمد بيرم- نفس المصدر- ص85. والموسوعة التونسية المفتوحة. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة".
http://www.mawsouaa.tn/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%

8A%D8%B1%D9%85%D9%8A%D8%A9. الجمعة 20/03/2020 م - 21:47 - آخر تعديل للصفحة كان يوم 24 سبتمبر 2019 الساعة 09:02.

- 3- محمد بيرم - نفس المصدر - ص 85. وعبد الواحد المكيني - فشل حركة الاستنارة الحديثة في البلاد العربية - دار الساقى - لبنان - 2010 - ص 134. 4- محمد بيرم - نفس المصدر - ص 86. 5- نفسه والموسوعة التونسية المفتوحة - المرجع السابق .
- 6- علي بن الطاهر الشنوفي - مقدمة صفوة الاعتبار لمستودع الأمصار والأقطار - صص 60 - 61.
- 7- محمود بن محمد قابادو (1814-1871 م) شاعر تونسي عصره بتونس، ومفتي مالكيها. أصله من صفاقص. انتقل سلفه إلى تونس، فنشأ و توفي بها. الزركلي - المرجع السابق - ص 185. 8- المكيني - المرجع السابق - ص 134. 9- محمد بيرم - المصدر السابق - ص 86.
- 10- يقول محمد بيرم الخامس في توليه إدارة الأوقاف "ولي الوزارة الكبرى الناصح الأمين خير الدين باشا ونحنا منى الحكومة الشورية في إجراء العدل، فرأى اجتهدا منه في انتقاء المتأهل للخطوط، أن يستعين بالعبد في بعض الخطط حسن ظنّ منه. فلم يسعني إلا مساعدته لما كنت على علم من توغّله في حبّ العدل والميل إلى القوانين والشورى، حتى كان أول ناشر لمفاخرها في قطننا أجبت استدعاءه وقُلدت رئاسة جمعية الأوقاف التي هي من مبتكرات الوزير المذكور في تونس". نفس المصدر - ص 87.
- 11- الموسوعة التونسية المفتوحة - المرجع السابق. وحمدان محمد - مدخل إلى تاريخ الصحافة في تونس - 1838-1988 - موسوعة معهد الصحافة وعلوم الإخبار - تونس - 1988. ص 48. 12- الشنوفي - المرجع السابق - ص 56. 13- نفس المرجع - ص 59.
- 14- محمد بيرم - المصدر السابق. صص 83-90-91. 15- نفسه. 16- نفس المصدر - ص 83. 17- الشنوفي - المرجع السابق - ص 57.
- 18- نفس المرجع - ص 53 وما بعدها. 19- نفس المرجع - ص 61. 20- من مظاهر هذا التدخل الأوروبي إصدار السلطان عبد المجيد الثاني خط هومايون الذي ينص على المساواة بين رعايا الدولة المسلمين وغير المسلمين وتوحيد الضرائب بإلغاء الجزية. الشنوفي - المرجع السابق - ص 65. 21- نفس المرجع - ص 76. 22- زادت أوضاع التونسيين تدهورا بسبب انتشار الأوبئة، فعم البلاد وباء الكوليرا سنوات 1849 و 1856 و 1867 والتيفوس سنة 1868. نفس المرجع - صص 70 - 71 - 72.
- 23- أحمد بن أبي الضياف (1804 - 1874 م) وزير تونسي، و مؤرخ. مولده ووفاته بتونس. ولي خطة العدالة، ثم الكتابة بديوان الإنشاء ثم كتابة السر، ووجه في بعض المهام إلى الاستانة. ثم وزيرا للقلم والاستشارة. اشتهر بكتابه (تحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان في ثمانية أجزاء. الزركلي - المرجع السابق - ج 1 - ص 138. 24- الشنوفي - المرجع السابق - صص 67 - 68.
- 25- اقترضت تونس نحو 5 مليون فرنك من الدول الأوروبية سنة 1863م ثم لجأت الى اقتراض ثاني عام 1865 ب 25 مليون فرنك غير أن الدول الأوروبية رفضت طلبا لقرض ثالث سنة 1867 - نفس المرجع - صص 68 - 70. 26- نفس المرجع - صص 68 - 76.
- 27- مهمم وزير الحربية محمد وزير 1863م وبعض قادة الجيش. والوزير الأكبر خزنة الدار سنتي 1864 مواصل الوزير الأكبر محمد بن إسماعيل عام 1879م وكانت له عرائض مع مدرسي الزيتونة الى الوزير الأكبر مصطفى خزنة الدار سنة 1869مورسالة الى رئيس الكمسيون المالي اللجنة المالية الدولية عام 1869 م . نفس المرجع - صص 50 - 54. 28- في سنة 1879م حاول الوزير الأكبر محمد بن إسماعيل الغدر به. نفس المرجع - ص 55. والصادق الزمرلي - أعلام تونسيون - تقديم وتعريب - حمادي الساحلي - دار الغرب الاسلامي - بيروت - 1986م - ص 92.
- 29- محمد بيرم - المصدر السابق - ص 83. 30- الصادق الزمرلي - المرجع السابق - ص 92. 31- الشنوفي - المرجع السابق - ص 56 - 57.
- 32- محمد محفوظ- تراجم المؤلفين التونسيين- دار الغرب الإسلامي- 1994 - ج 1 ص 147. 33- الشنوفي - المرجع السابق - صص 56 - 60.
- 34 - عن ظروف وطبيعة انضمام الجزائر للدولة العثمانية. أنظر جمال قنان- قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر - منشورات المتحف الوطني للمجاهد - الجزائر - 1994 - ص 117. 35- محمد بيرم - نفس المصدر - ص 1268. 36- نفس المصدر - ص 1269.
- 37 - نفس المصدر السابق - صص 1271-1272. 38- نفس المصدر السابق - صص 1270-1289.
- 39 - عن ظروف وأسباب احتلال الجزائر يمكن العودة ل: حمدان خوجة- المرأة- ترجمة محمد العربي الزبيري- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1982/مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار- نقيب أشرف الجزائر- تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1974. ومن المراجع المتأخرة كتاب جمال قنان - معاهدات الجزائر مع فرنسا.
- 40 - محمد بيرم - نفس المصدر - ص 1272. 41- نفس المصدر السابق - ص 1273. 42- نفس المصدر السابق - ص 1274.
- 43- أبو القاسم سعد الله - الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1860) - ج 1 - ق 1 - دار الغرب الإسلامي - 1992 - ص 262.
- 44- ابن عودة المزاري - طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر- تحقيق ودراسة يعي بوعزيز - ج 2 - دار الغرب الاسلامي - بيروت - 1990 - صص 88-91.

- 45- رغم كل ما قيل عن الباي حسن العجوز الضعيف فقد عرض على السلطان المغربي الدخول تحت رايته ومبايعته "ويكون هو من جملة نوابه فهو الأولي به من الروم"، وهو هنا يذكرنا بموقف ابن عباد الأندلسي مع يوسف بن تاشفين المرابطي عندما قال لمستشاريه "الهم رعي الأبل ولا رعي الخنازير"، ولكن سلطان المغرب ونائبه اكتفيا بتهب مدينة وهران والفرار منها قبل دخول الجيش الفرنسي تحت قيادة دامرمون، ومع تخلي بعض القبائل عنه اضطر الباي حسن للتسليم والهجرة إلى الاسكندرية. المزابي - مصدر سابق - ص 88-89.
- 46- محمد بيرم - نفس المصدر- ص 1272.
- 47- سعدالله - نفس المرجع - ص 44.
- 48- حمدان خوجة - مصدر سابق - صص 268-275. والمزابي - مصدر سابق - ص 91. وسعد الله - مرجع سابق- ص 44-45.
- 49- محمد بيرم - مصدر سابق - ص 1274.
- 50- عن ظروف وطريقة الاستيلاء على أملاك المسلمين تشير الكثير من التقارير الفرنسية الى تضرر القبائل القريبة من المراكز الاستيطانية أكثر من غيرها من هذه السياسة، وقد صرح أحد ضباط المكاتب العربية "لقد أثبت تحقيق أجري سنة 1869 بأن قبائل متيجة - سهل واسع وخصب بالضواحي الجنوبية للعاصمة - التي ألحقت بالسلطة المدنية سنة 1858 قد فقدت ثلثي أراضيها المحروثة ونصف أغنامها وخمس أبقارها، في حين احتفظت القبائل البعيدة بمواردها". كما اعترف وارنييه بأن : "البؤس السائد في المجتمعات القبلية وثيق الصلة بمؤسساتنا وأسواقنا وطرق تعاملنا". Charles Robert Ageron, Les Algériens musulmans et la France, (1871-1919, 1^{ère} éd, T1, P.U.F, Paris, 1968, p.99.
- et 370 وقتان - دراسات وأبحاث - صص 117-118. محمد بيرم - نفس المصدر - ص 1275. عن اعتداءات الاحتلال على ضد الجزائريين وممتلكاتهم ومقوماتهم ومؤسستهم أنظر: قنان - نفس المرجع - صص 116-121. محمد بيرم - نفس المصدر - ص 1276.
- 54- عن احتجاجات الجزائريين على قانون الأهالي والسياسة الفرنسية أنظر سعدالله- 1900-1860 ج 1- صص 480-486. محمد بيرم - نفس المصدر- ص 1277. عن المرسومين وأهدافهما والمظالم التي لحقت بالجزائريين في عهد نابليون أنظر: قنان- المرجع السابق- ص 119-120.
- 57- محمد بيرم- المصدر السابق - ص 481. عن ثورات الستينات في الجزائر أنظر: سعدالله - المرجع السابق - صص 179-195.
- 59- محمد بيرم- المصدر السابق- ص 1278. وعن سياسة نابليون الثالث بالجزائر أنظر: يحي بوعزيز - كفاح الجزائر من خلال الوثائق - المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1986. صص 131-150. محمد بيرم- المصدر السابق - ص 1279. سعدالله- ج 2- المرجع السابق- ص 25.
- 62- محمد بيرم - المصدر السابق - ص 1276. 63- نفس المصدر السابق - ص 1286.
- 64- عن دور العلماء في معارضة السياسة الفرنسية في القضاء أنظر: عبد الباسط قلفاط - سياسة الاحتلال الفرنسي تجاه القضاء الإسلامي في الجزائر (1830-1892) - دار قرطبة- الجزائر- 2015- صص 450-452.
- 65- Allain (Christelow)- Muslim Law Courts and the French Colonial State in Algeria - Princeton university press - 1985 - P.151
- 66- محمد بيرم- المصدر السابق - ص 1284. 67- نفس المصدر السابق - ص 1259.
- 68- كشفت تقارير الإدارة الفرنسية عن كيفية وأثار استيلاء الفرنسيين على سوق الجملة لمادة الصوف. أنظر عبد الباسط قلفاط - القضايا الاقتصادية للمجتمع الجزائري من خلال سجلات المحاكم الشرعية مدينة الجزائر أنموذجا (1886-1930) - أطروحة دكتوراه مخطوطة - نوقشت بجامعة الجزائر 2- 2016 - صص 242-243.
- 69- BEN ALI (Fekar) Les Industries de Tlemcen. L'artisan indigène - In revue Questions pratiques de législation ouvrière et d'économie sociale - N° 45 -Avril-Mai 1912 - p 119.
- 70- محمد بيرم- المصدر السابق- ص 1284. 71- مارست المؤسسات الفرنسية الربا الفاحش مع الجزائريين بصفة رسمية. أنظر: قنان- المرجع السابق- صص 130-131. 72- محمد بيرم- ص 1285. 73- نفس المصدر - ص 1289. 74- نفس المصدر - صص 1260-1262.
- 75- من هذه الدراسات: المرأة لحمدان خوجة - مذكرات القنصل الأمريكي وليام شالر- ومذكرات فنتور دو بارادي. 76- محمد بيرم- المصدر السابق- ص 1280. 77- لعله لا يقصد الزواج المختلط بين الفرنسيين والمسلمين لأنه كان جد محدود طيلة فترة الاحتلال.
- 78- أشار الى هذه الظاهرة من قبل أحمد بوضربة في مذكراته أنظر: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة- تحقيق محمد العربي الزبيري- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1981 - ص 194. 79- محمد بيرم- المصدر السابق - ص 1281-1282.
- 80- من هؤلاء الرواد من عاصر محمد بيرم الخامس ومنهم من جاء بعدهوا أبرزهم : عبد القادر المجاوي، مصطفى بن خوجة، عبد الحليم بن سماية، أمحمد بن رجال إضافة الى شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. 81- محمد بيرم- المصدر السابق- ص 1284. 82- نفس المصدر السابق - ص 1260-1261. 83- محمد بيرم - المصدر السابق- ص 1262. 84- نفس المصدر السابق- ص 1290.



- 85- عن المجلس العلمي ووظائفه بمدينة الجزائر أنظر: لطيفة حمصي -هيئة الإفتاء بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني - مجلة العلوم الإنسانية - ع41 - سنة جوان 2014 - صص 87-88-89-86- محمد بيرم- المصدر السابق- ص1260-1261-87- نفسه- ص 1282.
- 88- أنظر محمد بن عبد الكريم الجزائري- حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1981.
- 89- محمد بيرم - المصدر السابق - ص 1283-90- نفس المصدر السابق - ص 1283.
- 91- محمد بيرم- المصدر السابق- ص1284. المؤامرة أو ما تسمى بالجملة على القضية كانت قد بدأت منذ نهاية الخمسينات في الغرب الجزائري وذهب ضحيتها مجموعة من القضية بالعزل أو الاغتيال أو التدجين، عنها وعن السعيد بن شتات أنظر: كريستلو آلان- المكي بن باديس وبعض نواحي الحركة الوطنية في الجزائر في القرن التاسع عشر- مجلة الثقافة- ع61-1981- الجزائر- ص48-92- محمد بيرم- المصدر السابق- ص151-93- تذهب بعض الدراسات إلى أن صاحب القصيدة هو بيرم الخامس نفسه، واذ صبح ذلك فهو متصوف إضافة إلى تكوينه العلمي الزيتوني. أنظر: الهادي حمود الغزي - الأدب التونسي في العهد الحسيني (1705-1881) - الدار التونسية- تونس- 1972 - ص 72.
- 94- محمد بيرم- المصدر السابق- ص 460. وعن حالة تونس وما عانته من أوبئة ومجاعات وانعكاسات ثورة بن غدام أنظر: نفس المصدر- صص 482-485-95- نفس المصدر السابق - ص 1283.
- 96- محمد بيرم- نفس المصدر السابق - 1287. عن مصادرة الاحتلال للأوقاف وأثر ذلك على الحياة الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أنظر: ناصر الدين سعيدوني - دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر(العهد العثماني) - المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1984- صص 185-170. وعبد الجليل التميمي - بحوث ووثائق في التاريخ المغربي - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر- 1985 - صص 133-141.
- 97- يشير المؤلف هنا إلى قضية ستكون أساسية في مستقبل الحركة الإصلاحية الوطنية وهي مسألة فصل الدين عن الدولة، ولعل أحسن من تناولها بجنورها وتفصيلها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الرئيس الثاني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. أنظر: آثار محمد البشير الإبراهيمي- جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي- ج3- دار الغرب الإسلامي- 1997- صص 73 إلى 200.
- 98- محمد بيرم- المصدر السابق - ص 1287-1288-99- نفس المصدر السابق - ص 1267.